

## الباب السابع عشر

### تطبيقات التحليل النفسى

#### أولا - فى الطب

ان الميدان الأساسى الذى نجح فيه التحليل النفسى هو ميدان العلاج ، علاج الاضطراب العصبى بأنواعه أولا ، ثم علاج الأمراض العقلية ثانيا . وليس ذلك بمستغرب ، لأن هذا الميدان هو الذى نشأ فيه التحليل النفسى وترعرع ، وقد جمعت حقائقه الأولى من الحالات التى عولجت فى عيادات المحللين النفسيين ، ولا يزال العلاج هو المصدر الأساسى الذى يغذى العلم ، ويدعم حقائقه ، ويضيف إليها ، أو يدخل عليها ، بعض التعديل . ولا شك فى أن ما يجمع من الحقائق عن طريق العلاج ، تكون له أول ما تكون ، قيمة علاجية . وينظر أصحاب التحليل النفسى اليه على أنه علم تطبيقي فوق أنه علم نظرى ، بل هو تطبيقي أولا ثم نظرى بعد ذلك ، وهم لا يعتبرون أية دراسة نظرية لهذا العلم كافية لفهم حقائقه فهما صحيحا ، بل يحتمون على من يريد أن يتخصص فيه ، أن يقوم بتدريب عملي طويل ، ويمتاز التحليل النفسى بأنه يجمع بين الناحيتين العلاجية والنظرية جعما لم يُتاح لأى مدرسة أخرى فى علم النفس أن تصل اليه .

والعلاج عن طريق التحليل النفسى علاج طويل يحتاج إلى كثير من التفرغ والجهد اللذين يصرفان الكثير عن أتباعه ، وذلك لأن ما يقيمه شعور المريض من العقبات وما يثيره من المقاومات فى طريق اللاشعور ، يجعل من العسير أن يصل المحلل إلى هذا الأخير ، ومما يجعل التغلب على هذه المقاومة أكثر عسرا أنها مقاومة لا شعورية ، لا يشعر بها المريض وإنما يتبينها الطبيب فى مظاهر الصراع التى لا تخططها العين المدربة ، والتي تبدو كلما وقف الطبيب والمريض وجها لوجه أمام إحدى هذه المقاومات . والطريق إلى اللاشعور طريق ملتو ملتف ، معقد طويل ، لا نصل به إلى الغاية إلا بالجهد الكبير ، وليس

ذلك بمستغرب ، لأن الغاية النهائية هي العودة بالمريض إلى أصول الاضطراب عنده ، والوصول إلى عهود صحيحة في حياته هي عهود الطفولة ، وأعماق صحيحة في نفسه هي أعماق اللاشعور ، وكل ذلك ضد المقاومة التي تتجدد كلما لمس الطبيب نقطة حساسة في الحياة النفسية للمريض . وبذلك يصل التحليل إلى جذور الاضطراب ويحل عقد الطفولة نفسها ، فيهب الشخص سلاما داخليا لا يصل إليه بوسيلة أخرى من وسائل العلاج ، وينتشله من جو الأوهام والخيالات والوساوس الطفلية التي يعيش فيها ، ويثبت أركان علاقته بعالم الواقع ، ويجعل بناءه النفسي بناء سليما يكون أقدر على تحمل الصدمات ، والمرور في الأزمات النفسية ، فهو علاج للماضي ، وهو وقاية للمستقبل . كل هذا ، يميز التحليل النفسي عن غيره من وسائل العلاج .

وقد أدى التحليل رسالته أحسن أداء في المحيط المحدود الذي عمل فيه في العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة ، غير أنه لا يزال أمامه شوط طويل حتى يحقق كل الفائدة المرجوة منه ، فلا يزال عدد المختصين فيه سواء من الأطباء أو غيرهم قليلا ، ولا يزال الكثيرون ينظرون إلى هذا العلم بشيء من الشك والحذر ، ولا جدال في أن الجراءة والصراحة اللتين يواجه بهما التحليل النفساني مشا كل العقل مما لا يحتمله كل إنسان ، بل الواقع أنه لا يُنتظر أن يحتمله إلا القليل ، وتجد تفسير ذلك في نظريات التحليل النفسي ذاتها . ولكن متى انتشر هذا العلم بين الناس ، ولمس الجميع نتائجه أمكن أن يتسع تطبيقه تدريجيا حتى يأتي اليوم الذي تُجنى فيه كل فوائده .

هذا من ناحية العلاج النفسي ، ولكن للتحليل النفسي قيمة في توجيه عمل الطبيب العادي في علاقته بمرضاه .

فالمرضى ولاشك أزمة في حياة الشخص سواء أكان عارضا أم مزمنا ، وله نفس النتائج التي تكون للازمات النفسية ، ففقد تلمس أعراضه أو الظروف المحيطة به ناحية مدفونة في اللاشعور ، فيتسبب عن ذلك أن يكون له أثرا باق في نفسية الشخص . خصوصا وأن الطبيب نفسه قد يكون عاملا مساعدا في ذلك ،

لأنه يكون موضعاً لتحويل العواطف<sup>(١)</sup> نحوه ، فيحل في اللاشعور محل الأشخاص الذين كانوا يجذبون على المريض في طفولته ويقومون له بالحماية والرعاية ، فتصبح عواطف المريض نحوه مزيجاً من عواطفه نحو الأم والأب . فإذا أدركنا ذلك تبيننا أن على الطبيب أن يقوم بدوره في علاج المريض ومعالجته ، بكيفية تسمح بمرور هذه الأزمة النفسية في سهولة وانتهائها بسلام ، وبمعنى آخر أن العلاج — الطبي الصرف — يجب أن يصحبه "علاج" سيكولوجي ، أو على الأقل يجب أن يتنبه الطبيب إلى ألا يكون في معاملة المريض ما يؤثر أثراً غير مرغوب فيه من هذه الناحية .

ولعل كثيراً من الناس يستغربون أحياناً للنتائج الحسنة التي يصل إليها بعض الأطباء دون البعض الآخر ، حتى مع تساوى القدرة الطبية . والسبب في ذلك يرجع غالباً لنوع العلاقة التي يندشها الطبيب مع مريضه ، وهذه العلاقة يجب أن تكون علاقة عطف ومحبة واهتمام ، ويجب أن يُحسب فيها حساب النزعات النفسية التي تتناول المريض في هذه الفترة من حياته . وليس معنى ذلك أن يدلل المريض ، بل بالعكس يجب أن يحصل مع الطبيب مسئولية العلاج على قدر طاقته ، وبالرفق الذي تختمله حالته . وإذا صح ذلك بالنسبة للطبيب فهو صحيح أيضاً ، وبصفة خاصة بالنسبة للعلاج بالمستشفيات ، حيث يجب أن يكون الجو الذي يحيط بالمريض جواً مشوباً بالعطف ، يبعث الطمأنينة والثقة في نفسه ، ويجب أن تكون العلاقة بينه وبين القائمين على علاجه علاقة محبة متبادلة . وذلك في مصلحة العلاج الطبي نفسه فوق أنها ضرورة لسلامة نفس المريض .

والواقع أن المريض يشبه الطفل في كثير من الوجوه ، ويجب أن يعامل على هذا الأساس ، مع الانتباه للفروق التي لا بد من وجودها بينه وبين الطفل أي أنه يجب أن يحصل على مقومات عاطفية من نوع يشبه ما يحتاج إليه الطفل ، على أن يحل محلها بالتدريج ، إلقاء المسئولية عليه ، وإعادته إلى حالة الاستقلال والثقة من جديد ، ولعل في هذه النقطة وحدها ما يبرر استخدام النساء في التمريض على أن يتلقين التدريب السيكولوجي الكافي .

كل ذلك في حالة المرضى من الكبار فما بالك بالمرضى من الأطفال ؟ لاشك أن أثر المرض الجثماني في حالة الطفل النفسية دائما أثر بالغ . وكثيرا ما لاحظ الآباء أن قياد الأطفال حتى الرضع منهم ، يصبح أصعب سراسا بعد إبلاغهم من مرض خصوصا إذا كان طويلا . والمرض يهاجم الذات "الأنا" ويضعفها فتنتهز النزعات هذه الفرصة لتعبر عن نفسها كما يحدث في الأحلام ، وهذا هو السر فيما يبدو على المريض أحيانا من قلق وتبرم وما يبديه من صعوبة القيادة .

والأطباء كثيرا ما يشكون من ضيق بعض المرضى بتناول الدواء واتباع التعليمات ، والإهمال في التوق من المضاعفات ، ويعتبرون ذلك أمرا طبيعيا بالنسبة لبعض المرضى ويظنون أحيانا ألا حيلة لهم فيه ، والواقع أن سلوك المريض يرجع إلى الدوافع الأصلية العميقة ، يرجع إلى صورة الطفولة وإلى المعاملة التي لقيها وهو طفل ، وما كان يجد فيها من يسر وسهولة ، فهو يعكس على الطبيب وعلى علاجه ، ما كان يعامل به من الأبوين وهو طفل بدون أن يشعر أنه يفعل ذلك .

ففترة المرض تعتبر إذن فترة شاذة ، يحتملها في سهولة ويسر الأشخاص الذين سلم بناء شخصياتهم وخلا من آثار الصراع العنيفة ، أما أولئك الذين عانوا كثيرا من الصراع والكبت في طفولتهم ، فإن هذه الفترة تعتبر أزمة نفسية حقيقية بالنسبة إليهم .

ومما يزيد في صعوبة الموقف أحيانا أن يجد المريض في ظروف المرض ما يشبع بعض الرغبات التي يشعر بالحرمان منها في العادة . ومثال ذلك الزوجة التي لا يلتفت لها زوجها كثيرا ولا يراها ، فإذا مرضت أقبل عليها واهتم بها وبذل لها من حنانه الشيء الكثير ، أو الابن الذي لا يرضى أبواه عن سلوكه في الأحوال العادية ، فإذا مرض احتملا منه هذا السلوك وعاملوه بالعطف والرعاية . مثل هؤلاء الأشخاص يكون للمرض قيمة حقيقية عندهم فهم يستفيدون من أعراض المرض وظروفه فائدة شعورية ظاهرة ، فإذا كان لهم من ماضي حياتهم ما يجعل للمرض فوق ذلك قيمة لاشعورية أيضا نتجت حالة من أصعب الحالات . لأن الأعراض التي تحقق غرضا شعوريا وتحقق في الوقت نفسه غرضا لاشعوريا تميل إلى أن تثبت ويصح التخلي عنها أمرا عسيرا .

وتلاحظ هذه الظاهرة بوضوح في الأطفال حينما يمرضون ، فتنقلب معاملة أهليهم لهم من الجفاف والحشونة إلى التدليل وإجابة المطالب . ولذلك فمن الضروري أن يحصل أولئك الذين يقومون بالتمريض ، وخصوصا تمريض الأطفال على تدريب كاف في هذه الناحية ، حتى يستطيعوا أن يعينوا المريض طفلا كان أم راشدا على المرور في فترة المرض بدون أن يترك ذلك عنده أثرا باقيا ، ولا ننسى أن المرض والألم الجثامي من الأشياء التي يُحتمل جدا أن تحدث صدمة (١) تبقى أثرها مدى الحياة .

وهكذا نرى أن التحليل النفسي ذو قيمة خاصة لعلاج الأمراض النفسانية ، وذو قيمة عامة لصلته بالناحية الطبية الصرفة ، وهو في الناحيتين يستطيع أن يؤدي أجل الخدمات إذا أُحسن استخدامه .

ويحسن بناء على ذلك ، أن تشمل المقررات الطبية دراسة مترتبة لمبادئ علم النفس بصفة عامة ، والتحليل النفسي بصفة خاصة .

ومن اللازم مراعاة هذه المبادئ في جميع المؤسسات التي تشتغل بعلاج الأطفال ووقايتهم ، كـ مستشفيات الولادة ، والأطفال ، ومراكز رعاية الطفل ، إلى غير ذلك . بل إنه من اللازم مراعاتها حتى عند تركيب الأدوية التي يستعملها الأطفال .

ومن الضروري إذن أن يلم كل من يتصل بالأطفال من ناحية التطبيب والتمريض وغيره ، بمبادئ التحليل النفسي ، تماما يؤدي على الأقل إلى أن يدرك أخطار بعض التصرفات ، وأن يدرك في الوقت نفسه متى يحسن استشارة الإخصائيين في صدد المشاكل التي تنشأ في محيطه .

### ثانيا - في التربية

هنا نأتى إلى موضوع من أخطر الموضوعات ، وأبعدها أثرا في حياة الطفولة وحياة الأجيال المستقبلية وهو موضوع التربية والتعليم وإننا لتساءل ما الذى يفيد المرئى من العلم بالتحليل النفسى ؟

وقبل أن نستطيع الإجابة على هذا السؤال نجد من اللازم أن نتساءل أولاً عن الأغراض التي ترمى إليها التربية ؟ فنجد أن التربية ترمى إلى تنمية الشخصية تنمية تتناول مختلف جوانبها من فردية وخلقية واجتماعية ، والوصول بالفرد إلى أقصى ما تؤهله له مواهبه ، و إلى توجيه ميوله واستعداداته توجيهاً يجعل منه قوة فعالة وعضواً عاملاً نافعا في المجتمع الذي يعيش فيه .

و بمعنى آخر فإن التربية ترمى إلى تكوين الفرد تكويناً خلقياً واجتماعياً و إلى تنمية ميوله واستعداداته .

### تنمية الشخصية :

والتربية إذ تعنى بالشخصية ، لا تستطيع أن تغفل العوامل اللاشعورية التي لها أكبر الأثر في بناء هذه الشخصية ، وقد كانت التربية تعنى إلى وقت قريب بالذات "الأنا" وتتعامل معها مباشرة وترمي إلى تقويتها بمختلف الوسائل ، ونستطيع أن نقول إنه لكي نصل إلى هذه الغاية لا بد لنا من العلم بالزغرات والقوى الأخرى التي تعمل في النفس . ومن أهم ما أوصله إلينا التحليل النفسي فكرة نشوء الذات من الزغرات ، وأن معرفتنا بذلك تفهمنا كيف أن الذات تعتبر تطوراً حديثاً نسبياً في حياة الطفل ، وهي في نشأتها الأولى كالنبت الجديد يحتاج إلى الكثير من العناية والرعاية لكي ينمو النمو السليم ، وتتضح ضرورة هذه العناية إذا ذكرنا أن الذات تتولى من مبدأ الأمر معارضة الزغرات وقمعها وكتفها فهي محتاجة إلى أن تقوى ، وهي تستمد قوتها من المجتمع الذي يجب أن يعتبرها حليفة ويقدر صعوباتها ، وينظر إليها بعين الرفق والفهم ، فيعينها على ما تقوم به ، ويدرك أن زلاتها ناشئة عن ضعفها أمام الزغرات ، فلا ينسل ما قد يؤدي إلى زيادة هذا الضعف . ولا شك أن اعتدال مطالب المجتمع تسهل على الذات القيام بهذه المطالب ، ولذلك كان من الضروري في تربية الأطفال أن نتطلب القدر الضروري من السلوك الخلق والاجتماعي في مبدأ الأمر ، وأن نسمح بتحقيق ما لا ضرر في تحقيقه من الزغرات .

ولا شك أننا نسئل مهمة الذات "الأنا" إذا لم تغف مطالبنا منها عند حد القمع والكميت للزغرات ، بل إذا تحملنا في الوقت نفسه على تهيئة الفرص المناسبة

لإعلاء النزعات ، بأن هيأنا للطفل مجالاً للخبرة والنشاط التي يجد فيها بديلاً من نزعاته البدائية التي لا نسمح بظهورها .

موقفنا في مبدأ الأمر من الطفل لا يصبح أن يكون موقف تعسف واشتداد في اقتضاء المطالب ، وإنما يجب أن يكون موقف تقدير واعتدال ، وفي الوقت نفسه يجب أن نعد له الفرص لإبدال نزعاته .

وقد أدركت التربية منذ زمن بعيد أهمية "الذات" أو "الأنا" فعملت على تدعيم الثقة بالنفس عند الطفل ، ونصحت بالاعتراف بذاتيته وعملت على تدعيمها . والجديد هنا هو أن ندرك تماماً موقف الذات فيساعدنا ذلك على حسن التدعيم . والأهم من هذا هو أن نفهم هفوات الطفل وأخطائه فهما جديداً ، فالطفل إذ يخطيء أو يهفو إنما يخطيء أو يهفو بالرغم من "أناه" أو لأن هذه الأنا كثيراً ما تجهل موقفنا من هذا العمل ولا تعتبره "خطأ". وعلى ذلك فإن واجبنا في هذه الحالة هو أن نقوم هذه الأخطاء بطريقة لا تضعف الأنا ، وإنما يكون التقييم بحيث يبدأ من نقطة الضعف عند الطفل وهي شعوره بأنه لم يكن يجب أن يفعل ما فعل ، ولا ننسى أن الأنا تتقاضى ثمناً هو نجاحها في كسب رضا المجتمع وعطفه ، وهذا الثمن في أيدينا يجب أن نتعامل به ولكن يجب ألا نتغالي في التعامل فلا نغدر ولا نقتر ، لأن في الاغراق إضعافاً لمبدأ بذل الجهد في ارضاء المجتمع ، وفي التقدير إضعافاً لمبدأ الأخذ والعطاء .

ولا يثبت أن يدخل في الصنف عميل جديد ، ولكنه عميل صارم لا يعرف الهوادة هو الأنا العليا ، ولا شك أن من مصلحتنا أن تقف أمام النزعات الجائعة ، "أنا العليا" جائعة أيضاً لأن ذلك يسهل على الأنا ، أن تحصل على مطالبها من كليهما ، وكما أن النزعات تتميز بفرصة كل ضعف يبدو من الذات لتصل إلى الإشباع ، فإن الذات العليا تتميز بنفس هذه الفرص للوصول إلى الحرمان المطابق . فالمحول إذن على الأنا القوية . وعمما يزيد في قوة الأنا الخبرة فكما سهلنا للطفل أن يقوم بنوع من الخبرة الاجتماعية والخلقية تحت رقابتنا وإرشادنا ازدادت مهارة "أناه" في تناول العوامل اللاشعورية والتوفيق بينها واختيار المسلك الذي يعتبر كافياً من وجهة نظر الجميع .

وعلى ذلك فالصورة السليمة للشخصية هي صورة "الأنا" المتربعة على عرش العقل ، والتي تدير مملكتها إدارة حازمة حكيمة ، فتعامل الجانب النافر من النفس ( النزعات ) بما لا يزيد في ثورته وتسهل له التنفيس عن هذه الثورة وتتلقى الوحي من الأنا العليا ، ولكنها تهون من عسف هذا الوحي وتشدب من ضراوته ، وتحيله إلى مسلك عملي سليم ، وهي تكتسب بأعمالها ود العالم الخارجي ، بأن تتفاهم معه وتراعى مطالبه حتى إذا أتى الوقت المناسب أصبحت هي بدورها قوة ذات أثر في هذا العالم الخارجي ، فحاولت أن تصلح من شؤنه بما وصلت إليه من حكمة في تجاربها .

ولكى نصل بالشخصية إلى الصورة السليمة يجب أن نحاذر من تحميلها آثار الصراع الذي ينفض عليها سلامها . ويجب ألا نقترب بالطواهر ، فنظن أننا قد وصلنا إلى الاعلاء في حين أننا نكون قد هيأنا الطريق للتاعب النفسية المستقبلية بأن تخلصنا من مسئولية الحاضر ، وليس أضر على مستقبل الفرد من حل مشاكله الحاضرة حلا يتناول الأعراض ولا ينفذ إلى "الجوهر" — وهو العوامل الأساسية اللاشعورية — لأن ذلك يكون من قبيل اقفال الجرح الملوث وتعريض الجسم كله للخطر .

وإن أساس تربية الشخصية هو فهم الدوافع الأساسية للسلوك ، والصبر والمثابرة في معالجتها ، والأخذ بيدها ، وتهيئة السبل لاعلائها ، بحيث تتكون الشخصية متكاملة متساندة الأجزاء ، تنمو نمواً منطماً ، لا يختلف جانب منه عن سائر الجوانب ، وحتى تتكون عند الناشئ المناعة ضد الصدمات والأزمات .

### الإعلاء :

والإعلاء غرض من أعراض التربية ، وهو الذي تتحول فيه الطاقة الغريزية إلى مسالك لها قيمة فعلية واجتماعية كما عرفنا من قبل ، والإعلاء إذن هو نوع من الانتاج الفعلي يعطى الغريزة بديلاً عن الاشباع المباشر الذي لا سبيل اليه ، ويصرفها في الوقت نفسه عن الانتاج الوهمي عن طريق اصطناع الأعراض المرضية كما يصرفها عن عرقلة الذات في سلوكها واقامة العقبات في طريق حياتها . وعلى ذلك يجب

أن تتوفر للطفل حرية العمل والانتاج في المحيطين المادى والاجتماعى . والحرية هنا حرية ايجابية معناها أن نهىء بيئة الطفل فى مراحل نموه المختلفة ، تهيئة تسمح له ببذل النشاط وتسمح له بالخبرة والتجريب والعمل والانتاج ، ويجب أن تكون هذه البيئة متسعة ومرنة حتى يتخير من بين عناصرها ما يناسب اتجاه نزعاته الخاصة .

والإعلاء ثمن تتقاضاه النفس فهو مهمة تحتاج إلى جهد، ولذلك يجب أن ترفق فى توجيه الطفل اليه والانتعاج الأمور ، وأن تترك الفرصة لكي يبنى الاعلاء على أساس ثابت حتى تكون له صفة الدوام والاستقرار .

### الخبرة الاجتماعية :

والخبرة الاجتماعية التى نقصدها تقتضى أن يعتاد الطفل على المخالطة والتعامل مع غيره من الأفراد وكلما كان الجو الذى يحيط به جوا مستقرا سليما كلما مكّنه من اجتناء ثمراتها ، وبما أن من المهم أن يعلم الطفل بدستور المجتمعات المختلفة التى "نؤهلها" لعضويتها ، فإن من اللازم أن يفهم طرائق السلوك الاجتماعى عن طريق الخبرة الشخصية على أن نعينه بالشرح والمثال كلما استعصى عليه أمر ، وهكذا يتكون خلقه تكوينا متنورا فى مجموعة ، فلا يكون عبدا لأوامر ونواد لا يدرك حكمها ولا يستطيع أن يفهمها . ولا شك فى أن ذلك أمر نسبي فكثيرا ما نجد من المتعذر أن نستخدم المنطق مع الطفل الصغير ، وفى هذه الحالة نستطيع أن نستخدم نفوذنا فى توجيهه ، على أن يكون نفوذا تسنده المحبة والحنان والرفق ، حتى تسهل عليه تقبل التوجيه واصطناع السلوك الجديد .

وكلما نما الطفل واتسع مجاله الاجتماعى أصبح من اللازم أن تزيد معرفته بالمجتمع عن طريق الخبرة والتعلم .

ولا ننسى أن الطفل يبدأ أنانيا وعلى أساس أنانيته يتكون سلوكه الاجتماعى ، وكل خالق اجتماعى يعود بالنفع إن عاجلا وإن آجلا على الفرد ، ومن الضرورى أن يفهم الفرد ذلك . وأن يدرك بالتدرج الحكمة التى ينطوى عليها المجتمع بالنسبة اليه . ويستلزم ذلك أن يكون المجتمع نفسه منطقيا كما سبق أن بينا .

## الخبرة المادية :

والخبرة بالعالم المادي كالخبرة بالعالم الاجتماعي ، يمر في أطوار متعددة تبدأ باللعب ، وتنتهي بالدرس ، وتنتهي بالعمل في الحياة . وفي كل هذه فرص الإِعلاء . ولكن تتوفر الظروف للإِعلاء يجب أن تتوفر في عمل الطفل سواء في البيت أو في المدرسة أو في غيرها ، يجب أن تتوفر عامل الاهتمام والشوق ، وإذا ذكرنا أن النزعات في أساسها جنسية ترمي إلى اللذة ، أمكننا أن ندرك أن خير بديل لهذه النزعات هو ما أثار الشوق والاهتمام عند الطفل . والواقع أنه لا تكاد توجد خبرة مادية خالصة ، فكل خبرة مادية لها جانبها الاجتماعي ، أو يجب أن يكون لها جانبها الاجتماعي . فيتحقق لها شرط الإشباع ، لأن الفرد يتجه مع الوقت إلى الاندماج مع المجتمع فيجد فيها يرضى المجتمع ويخدمه ، إرضاء لنفسه وإشباعاً لها .

## التدريب وتكوين العادات :

ولعل من المناسب أن نتكلم عن تكوين العادات كوسيلة للتربية الخلقية والاجتماعية وذلك لأن الكثيرين يظنون أن أهم طريق إلى التربية هو أخذ الطفل بالتدريب لتكوين العادات الصالحة للعمل والفكر ، حتى يجد نفسه مدفوعاً إلى الاستمرار في السلوك الصالح بحكم هذه العادات ، وتكوين العادات معناه تثبيت وسائل معينة للسلوك عن طريق التكرار ، ولاخلاف في أن ذلك مفيد وضروري في كثير من الحالات ، خصوصاً بالنسبة للأمور البسيطة التي لا تحتاج إلى كثير من التصرف الشخصي أو التفكير ، ولكن التحليل النفسي يحذرنا من المغالاة في الاعتماد على العادات في توجيه السلوك . ويحذرنا خصوصاً من المعنى الذي تأخذه فكرة العادة ، عند الفرد ، فالعادة يصبح أن تتحول إلى نوع من الإلزام ، إن لم يكن مرضياً فإنه يكون شاذاً . انظر إلى عادة مثل غسل الأيدي التماساً للنظافة ، وكيف تتحول عند بعض الأشخاص إلى إلزام ينغص عليهم

عيشهم ، ويحول دون تمتعهم بكثير بما لا حرج منه ولا ضرر فيه . وانظر إلى عادة النظام والترتيب التي يقصد بها إلى تسهيل تأدية العمل ، وكيف تصل عند بعض الأفراد إلى أن تصبح هي الغاية حتى ولو أدت إلى تعطيل العمل أو وقوفه . وهناك كثير من الأمثلة التي تبين لنا أن العادة إذا لم تتصف بالمرونة وإدراك المرحى ، كانت عرضاً ثقيلاً يحمل النفس اعباءً فوق اعبائها .

### الخلق :

وما قيل عن العادة يقال عن الخلق ، فهناك من الناس من نجد أن الفضيلة عندهم أو الدين — إن صح أن تسميا بهذين الاسمين — الزام أقرب إلى العرض المرضي منه إلى المظهر الخلق أو الدينى ، وقد وجد كتاب القصص في أمثال هؤلاء المترمين مادة خصبة للإنتاج وتنتهى القصة غالباً بانهيار هذا البناء الكاذب لأنه بناء لا يستند إلى أساس صحيح من الإعلاء . ومثل هذا الخلق ينبنى غالباً على المعاملة بالعسف والقهر عند الطفولة فهو لا يواجه الصعاب مواجهة فعلية وإنما يهرب منها ويتحاشاها فيكون بناؤه شبه وهمى أو غير مهياً للملاقاة الصعاب والأعاصير . لأنه بنى في غير موجهتها .

والخلق الوحيد الذى تستطيع النفس أن تندمج في كيانها وتجعل منه حقيقة "واقعية" هو الخلق الاجتماعى كما أن الفضيلة التي تبقى وتثبت فضيلة اجتماعية ، وكلا من هذين له من هذا الأساس ما يثبت أركانه ، لأننا لا نضطر إلى اغماض العين والهروب من الحقائق بل بالعكس نجد أننا كلما تقدمنا في السن واتسع بنا الإدراك أمكننا أن نزيد علمنا وفهماً بالأسس التي بنى عليها خلقنا .

### المدرسة :

وهنا نأتى إلى التعليم بمعناه المحدد في المدرسة فنجد أن الحدث ينتقل إلى مجتمع جديد بالنسبة إليه . مجتمع لا تربطه بأفراده الروابط الوثيقة التي تعود عليها في المجتمع المنزلى .

والمدرسة تعتبر وسطاً بين المجتمع المنزلى والمجتمع الخارجى ، وهى تحوى من خصائص هذه الأخير على ما لا يحتوية المنزل ، ففيها مجال واسع لتكوين

الروابط ، وفيها مجال للخدمة العامة التي لا ترتبط بأفراد معينين ، ثم إن فيها انصرافا إلى العمل والانتاج، ولعل المدرسة لو تلبت لوظيفتها الاجتماعية وأدتها الأداء الكامل لاستطاعت أن تفرس في نفوس الأطفال التوجيه الاجتماعي السليم لمستقبل حياتهم . ولكي تقوم المدرسة بهذه الوظيفة يجب أن يتوفر فيها "جو" اجتماعي حقيقى ، يجب أن تكون مجتمعا ذا إرادة مستمدة من إرادة أعضائه ، عاملة لخيرهم ، بها ما للمجتمعات الحقيقية من الشخصية ومن التفاعل الداخلى والخارجى . هنا يصح أن يتدرب الناشئ على التعامل الاجتماعى فى صورة مصغرة وبذلك نستطيع أن نبني الأساس الذى يقوم عليه تعامله الاجتماعى فيما بعد .

فالمدرسة تستطيع أن تحل بعض العقد النفسية التي تتكون عند الطفل وهو فى المنزل ، فتكون من ألوان المحبة والكراهية جميعا وتحيلها من العنف إلى الاعتدال ، تستطيع أن تسهل فطامة الطفل من المجتمع المنزلى بأن تهيب له جوا سعيدا فتعده للاستقلال النفسى فيما بعد . تستطيع أن تساعد على أن تجعل حياة الطفل أكثر واقعية مما كانت ، بأن تهيب له الخبرة التي لا يستطيع المنزل بحكم تكوينه أن يهيئها له .

وبسبارة أخرى فالمدرسة تأخذ بيد الطفل الذى لم يعرف إلا المنزل ، وتوثق علاقاته بالعالم الخارجى شيئا فشيئا حتى يطمئن إليه ، ويشعر بحاجة إلى الاندماج فيه ، ويعرف كيف يناضل ويكافح فى هذا المجتمع .

والطفل فى مرحلة الدراسة الابتدائية يكون عادة فى فترة الكون أو الخمود المؤقت بالنسبة لنزعاته الغريزية . فيكون قد بدأ يتخلص من مظاهر الثورة العنيفة ، والأناية القوية ، وأصبح مهذبا شيئا ما واجتماعيا شيئا ما ، ومعنى ذلك أنه أخذ فى اعلاء نزعاته الغريزية ، أخذ بمبدأ التعاون الاجتماعى ، أخذ فى إدراك حقوقه وواجباته فى ضوء جديد .

وحروجه من المجتمع المنزلى فى هذه الفترة يضيف إلى أعبائه عبئا جديدا هو التكيف لحياته الجديدة ، بينما هو فى دور يشبه دور النقاهاة من ثورة الانفعالات وعنف الحياة الغريزية الأولى ، وكل ذلك ناقه نجده شديد التعرض للنكسة والنكوص على عقبيه إذا صدم بما يزعزع العوامل التي بدأت فى الاستقرار عنده فلا يلبث أن

يرتد إلى حالة تشبه حالته الأولى ، ولكنها تزيد عليها بأنها ليست طبيعية بالنسبة إليه ، والارتداد هنا ليس ماديا بل نفسيا ، ومحصله أن يتخلى الطفل عن كثير مما كسبه في أثناء تطوره وتقدمه ، ويعود القهقري إلى صفات طفولته الأولى التي تكون في هذا الدور أشبه بالأعراض المرضية منها بالصفات الطفلية ، ولعل أكبر جريمة ترتكبها المدرسة في هذا السبيل أن تنظر إلى الطفل نظرتها إلى الثائر المتعمد الذي يؤخذ بالشدّة والقهر، إلتماسا لسرعة النتائج—وكم تخفى الرغبة في سرعة الحصول على النتائج— فتمت فيه البذرة النامية نحو التقدم الاجتماعي وترجع القهقري ، في حين أن واجب المدرسة عكس ذلك تماما وهو أن تترفق في معاملته ترفقا يطمئنه لحياته الجديدة ، ويسهل عليه تحمل الأعباء المتزايدة التي تلقى عليها ، فتقوى ذاته وتجعلها أقدر على معالجة نزعاته أمام مشا كل الحياة المتزايدة في صعوبتها، ولن يكون ذلك إلا باحترام الطفل احتراماً مقرونا بالحزم، وبأن يجد في جو المدرسة من المحبة والعطف ما يغريه بإعلاء نزعاته وتهذيبها .

ولندكر أن الطفل في المدرسة قد بدأ أن يكون مجرد "فرد" في مجتمع كبير، فهو ليس مركزا للاتفات كما كان في المنزل ، وهذه النقطة ليست بالسهولة التي نتصورها لأنها تستلزم النزول عن كثير من المزايا والميزات التي تعودها ، ولا يشجع على هذا التنازل إلا شعوره بعطف جديد وميزة جديدة يكسبها من هذا المجتمع الذي يراود منه أن يفنى فيه وهو ولا يحظى منه إلا بقدر يسير من الاتفات.

وفي مرحلة الدراسة الثانوية يجب أن نعطي الطفل استقلالا تدريجيا من درجة أعلى، وأن نهيئه لتحمل مسؤوليات أقل سواء في محيطه العملي أو الاجتماعي حتى يتهيأ بعد ذلك لتحمل المسؤوليات التي ستلقها الحياة على كتفيه قريبا عندما يشب ويدخل في دور الرجولة .

### التعليم ، أو التدريس :

وهو نقل المعلومات الى الطفل بمختلف الطرق ، وإنما لنجد في حقائق التحليل النفسي ما يعزفنا أن النزعات البدائية الصرفة قابلة للإعلاء في مختلف النواحي الفكرية وأن النفس تنزع— عن طريق الأنا العليا— إلى تحويل النزعات البدائية إلى شغف بمختلف العلوم والفنون ، وهذا الشغف يعوضها عن اللذات

الحسية لذاتٍ من نوع آخر ، على أن الإعلاء لا بد له من ثمن والثمن هو ما يلمسه الطفل من رضا المشرفين عليه ومن عطفهم ومحبتهم وما يجده من النجاح في هذه السبل الجديدة عليه لارضاء النزعات .

ولعل خير برهان على ذلك ما نجده في صغار الأطفال أحيانا من " شغف " بالقيام بعمليات جافة بجمع الأعداد وطرحها وكتابة الكلمات والجمل .

ولذلك فنحن نخطئ كثيرا إذ نفرض أن الطفل لا يجب أن يتعلم ونبنى على هذا الفرض أننا يجب أن نرغمه على التعليم .

والواقع أن الطفل يجب أن يتعلم إذا هيأنا له الفرصة لكي يجب ما يتعلمه ، بأن نتقى له الشائق من الموضوعات والطرق والأساليب ، وبأن نجعل علاقتنا كعاشقين به مما يحبه ويوجهه نحو التعليم .

وكم من معلم محبوب أثر في تلاميذه أكبر الأثر بفعلهم يشغفون بأقل الأشياء جاذبية وأكثرها جفافا .

والطفل يجد في كثير من الدروس تعبيراً عن نزعاته يؤدي بها إلى الإعلاء ، وخصوصا تلك التي تتضمن التعبير الحر والتشكيل والانتاج ، كدروس الرسم والأشغال وما إليها ، كما أنه يميل إلى القصص وإلى التمثيل لما يجد في ثناياها من مواقف تدس مواضع حساسة تستجيب لها نزعاته .

فاذا عرف المعلم كيف يتخير الموضوعات والطرق والأساليب فإنه لا يحتاج مطلقا لأن يفرض أن التلاميذ لا يجبون التعليم .

## المعلم

قلنا فيما سبق إن العامل الأساسي في إعلاء النزعات هو العلاقة التي تتكون بين الطفل وأبيه ، ثم يتأنا أن هذه العلاقة نفسها تتكرر بشكل مماثل بالنسبة للمعلم . فالمعلم أب في صورة جديدة . وعواطف الطفل نحو الأب كما علمنا عواطف متناقضة تتضمن المحبة القوية والكراهية القوية . والطفل يميل إلى كبت الكراهية ، بل وإعلاء عناصرها بتحويلها إلى كراهية الشر والذليلة والاعتداء . فإذا فطننا إلى أن مركز المدرس بالنسبة للطفل بالغ هذه الدرجة من التعقيد بادئ

ذى بدء ، أدركنا كيف أن مهمته في الواقع مهمة عسيرة ، فهو هدف لما قد يكون مكبوتا من كراهية الطفل لأبيه ، وإذا كان سلوكه مع تلاميذه كسلوك الكثيرين من معلمي الأطفال في بلادنا ، سلوك جبروت واعتداء وحسب ، فإن هذا تشجع على تحميل شخصه بموامل الكراهية ، ويجعل من الصعب على الأطفال أن يصلوا إلى الإغلاء والسمو بنزعاتهم . بل وأكثر من ذلك فإنه إذ يمل على الأطفال طرق السلوك ، ومبادئ الأخلاق ، وفكرة الواجب ، ينج هذه الأفكار في أنفسهم بصورة العسف والقهر ، فتصبح هذه الأفكار والمبادئ نفسها محملة بآثار الصراع والكراهية ، فيخلق أطفالا قد يملون الواجب ولكنهم لا يحبونه ، يخلق أشخاصا قد يكونون طيبين الخلق ولكنهم غير سعداء بطيب خلقهم . يملون الواجب ويتبعون الفضيلة بنفس الروح التي تجعلنا نتجنب الدواء المر أو الجرعة المقرزة .

المدرس إذن يجب أن يغلب جانب الحب في نفس الطفل ، لكي يساعد على إغلاء نزعاته ، ولكي يسهل له في مستقبل حياته الطدوء النفسي ، والسعادة . فيجعله سعيدا بأن يبدش ، سعيدا بأن يؤدي الواجب .

ولكن هذه صورة جانب واحد من المدرس ، أما الجانب الآخر فهو جانب الموجة الحازم ، الذي يرشد التلميذ ويوجهه إلى ما فيه إغلاء النزعات ، وما فيه الانتاج والخلق ، وإلى السلوك الاجتماعي الصحيح .

والمعلم يمثل المجتمع الواسع بالنسبة للطفل ، وعلاقته به قينة بأن تكيف علاقاته المستقبلية بالرؤوس المختلفة في هذا المجتمع ، وعليه أن يكون حريصا على أن يمثل المجتمع تمثيلا يجعل الطفل مقبلا على المجتمع ، عاملا فيه ، مطمئنا إليه .

### ثالثا — في رعاية الطفولة

يشغل الكثيرون في الوقت الحاضر بمعالجة المشاكل الاجتماعية للأطفال عن طريق الرعاية والعلاج .

ولا شك أن كل مشكلة اجتماعية لها جانبها النفسي الذي يكون جزءا لا يتجزأ منها .

فالطفل السارق ، أو المتشرد ، أو المحجوم ، أو يتيم الأبوين ، عبارة عن مشكل نفسى قبل كل شئ آخر . والمسئول عن وصوله الى هذا الحال هو بيئته الاجتماعية التي حرمته من عوامل النمو السليم ، وهيات له الفرص للنشور والانحراف .

ولذلك فالفحص الاجتماعى يجب أن يكون له صرماه السيكولوجى ، وكذلك يجب أن يكون للعلاج فى النهاية هذا المرمى ، حتى يمكن الاعتماد على نتائجه .

ويرمى العلاج فى الغالب الى إعادة بناء المحيط الاجتماعى للطفل ، بناء سليما ، يجد فيه ضروراته النفسية — ويكون ذلك عادة بتغيير المعاملة التي يلقاها الطفل فى محيطه تغييرا أساسيا يتفق مع مطالبه النفسية .

ومن الغريب أن الطفل سرعان ما يستجيب الى هذا التغيير فى المعاملة ، وسرعان ما نكسب من ذاته حليفا لنا ، يقف فى طريق نزعاته الشاذة ، ويؤدى الى إصلاح حاله لدرجة كبيرة — بل إن المقاومة التي نلقاها عند الأبوين أكثر بكثير من تلك التي نلقاها عند الطفل فى عملية إعادة التكيف .

والأساس الذى تقوم عليه الخدمة الاجتماعية يختلف عن الأساس الذى يقوم عليه العلاج النفسانى بعض الاختلاف .

فقطرة التوكيد فى الخدمة الاجتماعية هى على بيئة الطفل ، وان كانت لا تهمل الطفل نفسه بطبيعة الحال — ولا شك أن هذا أفعال فى حالة الطفل منه فى حالة البالغ الذى يجب أن يصلح العلاج الى تقويته هو بالذات بصرف النظر عن بيئته ، أى الى تكيفه تكيفا يجعله قادرا على مواجهة المشاكل التي تلقىها البيئة فى طريقه أيا كانت .

ولكن ذلك لا يمنع من أن المبادئ التي نتعلمها من التحليل النفسى تنير لنا السبيل سواء رمينا الى تكيف محيط الطفل أم الى علاجه ذاتيا .

ولا شك أن لمشاكل الأطفال مغزاها الاجتماعى الواسع ، إذ نرى أثرالعوامل الاجتماعية الكبرى فى الحالات الفردية للشذوذ والمروق .

## رابعاً — في التضامن الاجتماعي

لاشك أن المجتمع ظاهرة إنسانية نفسية ، وأنه لما يساعدنا على فهمه وتقدير المشاكل التي تقوم فيه أن ندرك هذه الحقيقة إدراكاً واضحاً .

فالإنسان هو الوحدة المتكررة التي يتكون منها المجتمع ، والعلاقات بين الأفراد بعضهم وبعض وبين كل منهم والمجموع ، هذه العلاقات تتفاعل تفاعلاً أولياً وثانوياً ... الخ ويتكون من نتائج هذه التفاعلات العلاقات والنظم والأسس والتقاليد الاجتماعية على اختلافها .

وعلى ذلك فدراسة الإنسان ، نفسه وما فيها من قوى ودوافع ونزعات ، وما ينشأ بينه وبين غيره من علاقات ، هذه الدراسة ضرورية لفهم القوى التي تؤثر في المجتمع .

وأى سيكولوجية اجتماعية يجب أن تقوم دراستها على مركز الفرد في الجماعة .

فلننظر إذن في الوحدة الاجتماعية وهي الفرد فماذا نجد ؟

نجد أن الفرد ينشأ ولا حول له ولا قوة ، تعتمد حياته اعتماداً كلياً على ما يبذله له الغير — الأم — من حماية ورعاية .

والطفل في مبدأ حياته أناني ، وأنايته كاملة لا تعرف الاعتدال ورغبته ملحة تطلب الإشباع المطلق . وعلى ذلك تصبح الأم مصدر الإشباع وفي الوقت نفسه موضوعاً للحب وتمتد أناية الطفل فتشمل الأم — أو بعبارة أخرى يحدث اندماج بين شخصيته وشخصية الأم — وتصبح لرغبات الأم صدى في نفس الطفل لا تلبث أن تصل إلى مكان الصدارة من نفسه وتحاول انتزاعه من رغبته وشهواته وعلى ذلك يأخذ الطفل نفسه قليلاً قليلاً بتلبية مطالبها حتى ولو كانت ضد رغبته . وتنشأ تجاه الأم عاطفة مركبة تحمل في ثناياها حقوقاً كما تحمل واجبات ، وتبذل الواجبات ، كما لو كانت في مقابل الحقوق .

ويظهر الأب على مسرح حياة الطفل فيدخل هو أيضاً في الصفقة . والأب في العادة يكره ويخاف لأنه يأخذ جانباً من التفات الأم ومحبتها ويحبسها عن الطفل

أحياناً ويخلو بها خلوات صربية لا يرى الطفل لها مبرراً ولا يستطيع أن يحتماها في أول الأمر .

ولكن هذد الكراهية لا تدوم لأن الأم تجد الحماية في كنف الأب ، وتبذل له المحبة والطاعة ، فلا يلبث الابن أن يتخذ هذه الوجهة نفسها فكانه في شغفه بإرضاء الأم يشاركها محبتها لأبيه فيبذل له الحب ويشعر في كنفه بالأمن ، ويشاركها فيما يخلفه وجوده وقوته ورجواته من شعور بالطمأنينة والسلامة . وأما ما عدا هذه من العواطف فتكبت فإذا سمحت الظروف تناولها الإغلاء .

وهكذا تتطور علاقة الطفل بأبويه ويتكون تجاههما شعور مركب معقد ولكنه يتضمن دائماً وجهي الحقوق والواجبات ، أما الحقوق فهو يتقاضاها ويطلب بها من مبدأ الأمر وأما الواجبات فهو يحسن فهمها وأداءها كلما تقام به العمر ، ولكن يظل الأمر أبداً أمر حقوق وواجبات ، وإن كان الطفل لا يربط هذه بتلك ربطاً واضحاً في شعوره . والأساس الذي تبنى عليه هذه "السياسة" ، سياسة "الأخذ والعطاء" ، يقوم على نوع من "التعاقد" تقوم به وتنفذه "الأنا" ، أطرافه "الهي" ، و "المجتمع" ، و "الأنا العليا" . فكان "الأنا" ترسم الحدود التي تتلاقى عندها النزعات الفريزية ومطالب المجتمع في شبه تعاقد أو معاهدة يسهل "التعامل" على أساسها .

ويتسع محيط الطفل فيدخل في — المعاهدة — أخوة وأخوات وخدم وأقارب وأصدقاء ويكون لكل فرد من هؤلاء قيمته الوجدانية الخاصة عند الطفل ، التي تختلف باختلاف ظروف الخبرة التي تجمع بينه وبين الطفل ، وباختلاف ترتيب وروده في مجال هذه الخبرة .

وهكذا يجد الطفل نفسه في مجتمع ، يلتبس فيه تحقيق الرغبات ، ويبذل له الواجبات ، ولكن الرغبات نفسها ، والواجبات نفسها ، تتغير بتغير الزمن درجة ونوعاً ، فكما نما الطفل ارتقت مطالبه ، وتنازل عن التافه منها أوقام به لنفسه ، وارتقت واجباته وزادت قيمتها الحيوية للمجتمع .

وهكذا نرى أن "ولاء" الطفل لنفسه يترتب عليه "ولاءه" لأمه ثم لأبيه ثم لمحيطه العائلي الصغير . وبعبارة أخرى أن أنانية الطفل أصبحت تتسع فتشمل أفراداً غير نفسه ، ارتبط معهم برباط الواجب والمصلحة .

وهذا الولاء نفسه ، هو الذى ينتقل بصورته أو بما يقرب منها ، فيما بعد إلى ميادين نشاطه المختلفة فى المدرسة ، فى المهنة ، فى الزواج وفى ميدان أعم من هذا وهو المجتمع الأكبر الذى يعيش فيه مع مواطنيه .

وتصطبغ علاقته بالجماعة دائماً بصبغة تشتق من تلك التى اكتسبتها فى أول حياته مع بعض التعديل الضرورى - فيبقى أثر هذه العوامل المبكرة فى سلوكه واضحا كل الوضوح .

والمجتمع مكوّن من أفراد عديدين كل منهم قد حمل معه آثار "ولائه" لأسرته وعكسها على المجتمع .

وبعبارة أخرى إن كل فرد يتطاب من المجتمع أشياء، ويبدل له أشياء، ولكن هذه وتلك تتوقف على تجارب طفولته المبكرة ، ويتوقف التضامن الاجتماعى بين الأفراد على ما بدأوا به حياتهم من العلائق الاجتماعية. ونخرج من ذلك بمبدأين هامين .

( الأول ) أن التربية الاجتماعية الأولى هى المدار فيما يكون عليه المجتمع من تضامن وتماسك فى مستقبل الأيام وعلى ذلك فهمة اصلاح المجتمع تقع على عواتق الأبوين ، ثم على عواتق المدرسين ومن يليهم ممن يمتكون بالناس احنكا كما اجتماعيا وعليهم مسئولية نشوء هذا الولاء ونموه ورفقيه .

( الثانى ) أن المجتمع نفسه مسئول عن السلوك الاجتماعى لأفراده ، فهو لا يحصل على أقصى ما يستطيع من الفرد ، إلا إذا بذل للفرد أقصى ما يحتاجه من رعاية وحماية . فيجب أن يشعر الفرد أنه محل عناية المجتمع وأن كل جهد يبذله إنما تعود عليه منفعته بطريق مباشر أو غير مباشر .

وبعبارة أخرى فإن فكرة اتساع أنانية الفرد حتى تشمل المجتمع كله ، مبنية على تحقق شروط هذه الأنانية - التى تعمل الآن فى مستوى رفيع - وهذا التحقق لا يتحتم أن يبقى فى المستوى المادى ، بل تدخل فيه بالتدرج نواح فكرية ومعنوية ، ربما زادت قيمتها عند بعض الأشخاص على النواحي المادية .

ويستخلص مما فات أن تاريخ حياة الأفراد في طفولتهم له أكبر الأثر في تكييف حياة المجتمع فيما بعد ، وأن طابع التربية والحياة العائلية في أى أمة من الأمم له أكبر الأثر في الطابع الاجتماعى لهذه الأمة .

وإذا أردنا أن ندرك هذا الأثر فلننظر في أثر بعض البيئات المنزلية في التكييف الاجتماعى للطفل — فهذه البيئات — وربما كانت منها بيئتنا المصرية — يغلب عليها التناقض في معاملة الطفل .

فهو حينما يجاب إلى مطالبه وحينما يحرم منها بغير سبب معقول . ثم هو يثاب حينما ويعاقب حينما مع وحدة الظروف في الحالتين ، تخضع معاملته لنزوات السباعة وكثيرا ما تكون المثوبة والعقوبة رهن المصادفة . ويشعر الطفل بالقلق والحيرة إذ يرى معاملته تتأرجح بهذه الكيفية ، فلا يطمئن في يومه إلى قاعدة للعاملة حتى يجد في غده ما يشككه فيها . فيعاقب اليوم على ما أثيب عليه بالأمس ، ولا يدري المسكين أن خواطر الأبوين لا تجرى على قاعدة وأن مثوبته أو عقوبته كثيرا ما تكونان رهنا بما يحسانه من سرور أو من ضيق — وتتهار القواعد التي ظنها الطفل ثابتة ، واحدة إثر واحدة ، فتزداد حيرته وقلقه . وتندك قواعد طمأنينته وأمنه ، ولا يلبث أن يكتشف أن سلوك الأبوين نحوه سلوك أنانى ، تتحكم فيه لذاتهما ولا يتبع دستورا ثابتا . وينتج عن هذا الاكتشاف أمران في غاية الأهمية .

الأول : أن الطفل يجد المهرب في أنانيته الخاصة ومعنى ذلك أنه "ينكص" على عقبيه ويعود إلى الأنانية الضيقة التي هي الأصل في النزعات ، وتتقلب رغبته في الأخذ والعطاء والتعامل العادل أنانية وجزيا وراء المصلحة حيث يجدها . فهو يرضى أباه مرة ويرضى أمه مرة ويلتمس المصلحة في مختلف وجوهها .

والثانى : أن الطفل ينافق وطبيعى أن يضطر الباحث وراء مصلحة إلى النفاق لإرضاء نزوات الوالدين التي لم يجد السبيل إلى ارضائها بغير ذلك . والنفاق هو الضريبة التي يدفعها الضعيف المحتاج إلى القوى المحتاج إليه .

ويدخل الناشئ معترك الحياة وهو مزود بهذين السلاحين الأنانية والنفاق ، فهو في كل جماعة وفي كل ناد يستعملهما ، لأنه يجد فيهما السلامة حيث تفشل

المحبة والتفاهم ويصبح السلاحان نفسيهما عاتنه تجاه العائلة الكبيرة وهى المجتمع ، فهو إذ يستطيع ولاؤه لأبويه بهذه الصبغة ، ينقل الصورة إلى ولائه للمجتمع . وهكذا نرى كيف أن الروح الاجتماعية والعاطفة الوطنية هى انعكاس لعاطفة الصغير نحو أبويه .

ونرى كيف تتكيف صورتها في المنزل في السنين الأولى من حياة الطفل .  
والعبرة في هذا ذات وجهين .

( الأول ) أن الوطنية تغرس في البيت بين الأم والأب ، وأن نشأة الطفل المبكرة لها أكبر الأثر في توجيهه في هذه الناحية ، بحيث يكون دستور المعاملة في البيت متناقضا مضطربا لا يكاد الطفل يصل فيه إلى قاعدة حتى يجد ما ينقضها أو إلى طمأنينة حتى يجد ما يهددها ، يهرب إلى الانانية والنفاق فيتخذها ديدنا في مواجهة كل جماعة يلحق بها في حياته .

فلنبدا بغرس الروح الاجتماعية والوطنية في بيوتنا ( وفي مدارسنا ) وليس ذلك بأن نلقن الأطفال حب الوطن بل بأن نعاملهم معاملة عادلة ، ونشعرهم بالطمأنينة ، ونفهمهم بأعمالنا أن الاحسان جزاؤه العطف والمحبة . وليكن لنا دستور ثابت ما أمكن ، يجد الطفل في كنفه الأمن والطمأنينة فنعدده بذلك للمجتمع الأكبر ونوجهه نحو الصالح له والمجتمع .

( والثاني ) أن الفرد إذ يعمل واجبه للمجتمع ، ينتظر من المجتمع أن يؤدي واجبه نحوه ، ولن تجد الإخلاص من ناحية الفرد الا اذا وجد الالتفات والعطف والمعونة من ناحية المجموع .

فالفرد المهضوم الحق الذي لا يجد الأمن والطمأنينة المادية أو المعنوية في كنف المجموع . لا يستطيع عادة أن يكون اجتماعيا أو وطنيا ، لا يستطيع أن يؤدي الواجب إذا كان لا يصل الى الحق .

فالمجتمع يجب أن يتسائد ويتعاون ، بحيث يحس كل فرد بأنه محل التفات المجتمع كما يحس الطفل أنه محل التفات أبويه ، فاذا مرض وجد من المجتمع

عناية به وبأولاده اذا مات . واذا افتقر أو ضعف أو أصيب بعاهة قدم المجتمع له ما يخفف عنه .

اذا شعر الفرد بهذا أعطى من قوته وحياته للمجتمع ولم يخل عليه بما يستطيع من جهد أو مال أو حياة .

اذا أخلص المجتمع للفرد أخلص الفرد للمجتمع فكل مجتمع يستحق هذا الاسم يجب أن يقوم على قاعدة أن الواحد للكُل والكل للواحد .

ولعل مختلف الدول قد فطنت الى ذلك في خلال هذه الحرب مما نجد أثره فيما ظهر من التشريعات المختلفة التي ترمى إلى التأمين الاجتماعي .

ولا شك أن التربية المبنية على القهر تخلق اعداء للمجتمع ، لأن قهر الأطفال كما قلنا يخلق الكراهية لأبايهم ولكن هذه الكراهية تكبت ويحل محلها المحبة للأب ، وتبقى مكبوتة تنتظر أول بديل للأب ، فتلق بنفسها عليه ، والبديل هنا هو المجتمع أو النظام أو القانون . . . الخ . فقسوة الأب أو المدرس قد تصل به إلى الطاعة المؤقتة ، ولكنها قد تنقلب فتصير الناشئ ناقصاً على المجتمع مقرباً عليه .

وكما أن تربية الأفراد مسئولة عن انتشار الروح الاجتماعية بين الشعوب ، فكذلك تربية الشعوب مسئولة عن انتشار روح الإخاء الانساني العام . ولا شك أن الحروب والعداوات بين الناس هي مظاهر لنزعتهم الاعتدائية المتأصلة فيهم ولكن هذه النزعة ممكنة الإعلاء ولعل العالم ينجح في توجيهها للكفاح ضد الفقر والمرض والجهل . . . . بدلا من تدمير الناس بعضهم بعض .

### خامسا - في الفن

إن الفن في مختلف صورته ما هو الا نوع من التعبير عن الطبقات العميقة في العقل بما تحويه من رغبات ونزعات مختلفة قد أصابها الكبت والحرقان ، فلم تجد مجالاً للإشباع في الحياة اليومية ، فتحولت في حياة الفنان إلى شعر أو نثر أو رسوم أو رقص أو موسيقى .

والفن يمتاز بقيمته الوجدانية الفائقة ، وهذه القيمة مشتقة من ارتباطه بالوجدانيات العميقة للفنان ، ونبوعه منها ، ثم إن تأثيرها في المستمتع بها إنما يترقب على لمسها لتلك الانفعالات المكتوبة عند الإنسان بوجه عام . وأى نظرية تحاول أن تفسر الفن تفسيراً مبنياً على الشعور وحده تفضل في تبيان عمق الأثر الذي يرتبط به . فالفنان يتكلم عن الإلهام الذي يهبط عليه والشاعرية تدش عن الشيطان الذي يتكلم باسمه ، وكلاهما تعبير عن عجز الفنان والشاعر عن تفسير إنتاجهما تفسيراً يرجع إلى الشعور ، بل هو إشارة واضحة إلى أن الإنتاج إنما يرجع إلى عوامل خارج "الأنا" أي إلى عوامل لاشعورية .

والجانب اللاشعوري من عقل الفنان أو الشاعر إنما يشتمق القوة الدافعة التي يستخدمها في تعبيره ، من العوامل النفسية اللاشعورية ، وهي الصراع والكبت فيهيل الانفعال الناشئ عنها إلى طريق آخر يهرب عن نزعاته المكتوبة وعن رغباته التي لا تجد سبيلاً إلى التحقيق ، وعملاً لاقى في حياته من الحرمان ، يعبر عن كل ذلك بطريقة الفذة التي تتوفر فيها نوع من الانسجام والامتاع والسمو .

وما يصحب كلا من الإبداع والاستماع الفني من انفعال عميق ، إنما ينبع من معين الغريزة نفسها ، والفنان إنما يعلى مستوى التعبير عن الغريزة ، بتجريد هذا التعبير من العناصر الجنسية والحسية المباشرة ، وبناءه على التناسق والتبنيح ، والانسجام الجمالي ، الذي يلتقي مع الغريزة في مستوى يعلو على مستواها البدائي ، الذي يرمى إلى الأشباع الحسي ، فيصل إلى نوع آخر من الأشباع الجمالي .

وينتج عن ذلك نوع آخر من الارتياح والاطمئنان المهذب ، وربما كان ذلك ناتجاً من تمكن الإنسان من التعبير عن نزعاته الغريزية في هذا المستوى المجرد ، ورؤية رموزها في الخارج في صورة أو حركة أو شعر ، في هيئة مكتملة جميلة قد تخلصت مما هو عالق بها من تكالب ومن تصارع ومن كبت وحرمان .

فكأن الغريزة ترى نفسها لأول وهلة في امرأة تعمل عمل المصفاة والمرأة في وقت واحد ، فتخلص الغرائز مما هو عالق بها من آثار الألم والحرمان ، وتظهرها في صورة جميلة . حتى المأساة في الفن لا تشبه المأساة في حياتنا العادية إذ تنتهي دائماً بنوع من الراحة والطمأنينة لأنها تظهر آلام الإنسان في ضوء جديد .

والواقع أن القدرة على التعبير الخيالي عند الطفل ، هي أساس القدرة على التعبير الفني عند الفنان . فأحب الأشياء إلى الطفل هي أن يلعب وكل طفل عندما يلعب إنما يعمل عمل الفنان المبدع ، فهو يبدع عالماً خاصاً به ، يعيد فيه ترتيب الأشياء والأوضاع ، ويغير العلاقات بما يجعل هذا العالم أكثر ارضاء لزعته من عالمه الواقعي . والطفل يهتم كل الاهتمام بلعبه وهو عنده جدّ أعظم الجدّ . حقيقة أنه يعلم أن جوّ اللعب ليس هو بعينه جوّ الحياة الواقعية ، ولكنه ينسجم مع جوّ اللعب السجّاماً يجعله ينسى نفسه . وتتلو هذه النزعة إلى اللعب عند الطفل ، نزعة إلى الخيال فهو إذ يكبر قليلاً يجد أنه لا يستطيع أن يحصل على كل ما يريد من اللعب فيبدأ في إطلاق العنان لخياله ، والخيال نوع من اللعب بالأفكار ، فيبنى في داخل عقله عالماً خاصاً به ، عالماً يشككه كيف شاء ، ويجد فيه رغباته مجابة وآماله محققة . وتبقى هذه النزعة للخيال أو "أحلام اليقظة" بعد تجاوز مرحلة الطفولة ولكنها تتطور مع تجارب حياته ، فكل تجربة جديدة تطبع خيال الفرد بطابعها الخاص . فالحادثة من حوادث الخيال إنما تتساق بأزمة ثلاث وتحوم بين هذه الأزمات . فهناك التجربة المباشرة التي تنشط الخيال ، أي أن هناك المثير الحاضر للخيال ، الذي يكون في العادة حادثاً له القدرة على إثارة رغبة عميقة . ومن هذا الحاضر ينحدر الخيال إلى ماض بعيد ، حيث يلتقي في طفولة الفرد بحادثة أخرى قد تحققت فيها الرغبة المثارة في الحاضر ، ثم يعود الخيال كرة أخرى فيخلق لنفسه حالة تمثل تحقيق الرغبة في المستقبل — وهكذا نرى أن الماضي والحاضر والمستقبل قد سلكت معا في مسلك الرغبة التي تنظمها جميعاً .

وهكذا نرى أن أحلام اليقظة تعتبر البديل الذي يلجأ إليه الإنسان عندما يفوت مرحلة اللعب الخيالي — وصاحب أحلام اليقظة يعمل دائماً على إخفاء أحلامه عن الآخرين ، لأنه يشعر بالجل وبالعار إذ يكشف خبيثة نفسه وأخص ما يلصق بها . وإذا لم ينجئ أحلامه وأراد أن يقصها علينا فإننا لا نستمتع بها بل نصيق بها وننبرم ، وهنا تتجلى مقدرة الفنان فإنه الشخص الذي يستطيع أن يحيل هذا الضيق والنبرم إلى سرور واهتمام<sup>(١)</sup> . إن هذا هو سر الفن ، فهو يحيل أحلامه إلى مادة لا تصدمنا ولا تثير فينا المعارضة ، والضيق ، والكراهية ، أي يجردها من

العناصر الشخصية ، ومن الرغبات العارضة ، التي يخفيها براعته الفنية فيرتفع عمله الفني عن المستوى الذاتي ، الأناي ثم إنه يجذبنا إلى عمله بتوكيد الناحية الشكلية الفنية فيعبر عن انفعالاته بكيفية لا تكاد نقرأ فيها أثرا أنايا أو شخصيا ، لأن التعبير ارتفع إلى المستوى المجرد . وفي هذا المستوى نستطيع أن نستمتع بهذا التعبير عن أحلامنا ونحن خلوم من الشعور بالمثل والعار . وكلما خلص التعبير الفني من أثر الرغبات المباشرة وتجرد عن المطالب الأناية ” الرخيصة ” كلما أصبح فنا رفيعا يرفع من مستوى النزعات هذا الرفع الذي نلمسه في شعور السمو الذي يشعر به الفنان عندما يبدع والمشاهد عندما يستمتع .

### سادسا — في ” الصحة العقلية ” :

تبحث الصحة العقلية في وسائل الوقاية من الانحراف العقلي بأنواعه المختلفة في أدوار النمو المختلفة أي أنها تستقصى العلل النفسية ، وتتعرف أسبابها وتحاول أن تتق هذه العلل عن طريق اتقاء مسبباتها ، وعلى ذلك فعلم الصحة العقلية علم انشائي ، يبنى على معرفة كاملة بالنفس في حالتها الصحية والمرضى ، على معرفته بالعوامل والمؤثرات الظاهرة والخفية التي تعمل في هذه النفس ، وتسبب لها أنواعا من الانحراف ، بعضها مؤقت ، وبعضها دائم ، ثم تعلمنا كيف نتقيها جميعا .

وقد أفاد التحليل النفسي فائدة عظيمة في أنه أظهر لنا أثر العوامل التي ترجع إلى الطفولة الأولى ، تلك العوامل التي قد لا تدخل في حساب الشخص ، أو في حساب المحيطين به ، وبين لنا أن هذه العوامل منها ما قد يظهر له أثر واضح ومنها ما يخفى ولا يظهر له أثر واضح مباشر ، بل يبقى حتى يثار فيما يلي من العمر ، فيؤدي إلى الانحراف النفسي ، وبين لنا بكل وضوح أن أهم مراحل النمو هي مرحلة الطفولة الأولى ، وأن أهم العوامل المؤثرة في كيان النفس هي العوامل التي تؤثر في هذه المرحلة ، فإذا مرت هذه المرحلة من مراحل العمر في يسر وسلام كان بناء الشخصية سليما متينا ، يحتمل كثيرا من الصدمات التي قد تصيبه بعد ذلك ، وإنما تؤثر هذه الصدمات تأثيرا سيئا إذا استطاعت أن تجرد من أحداث الطفولة الأولى ما يتلاءم معها . وردد صداها ، فيثور على النفس ، ويؤدي

إلى حدوث الانحراف أو الانهيار فيها . فكأن المهم هو البناء الداخلي للنفس أولاً ، فإذا كان في هذا البناء نقطة ضعف ، أمكن للأحداث الخارجية أن تنال منها ، وإذا استخدمنا لغة الحرب الحديث فإنه لا بد أن يكون في داخل النفس "خطابور خامس" يتميز فرص الهجوم الخارجي ليعمل في هدم كيان النفس الداخلي .

أصبحت فترة الطفولة الأولى إذن أهم الفترات التي تعنى بها الصحة العقلية . وأصبحت معاملة الطفل في هذه الفترة أساساً لصحته وسلامة عقله .

### موقف الأنا :

ويمكن وصف جميع أنواع الانحراف والاضطراب النفسي على أنها متاعب "الذات" أو "الأنا" ، متاعب تسببها لها النزعات التي لا تستطيع الذات أن ترضيها لأن المجتمع لا يرضى عنها ، ويحارب "الأنا" ويعاقبها إذا رضخت لشهوة النزعات فيها . ويضاف إلى ذلك كما علمنا من قبل مطالب "الأنا العليا" من الأنا وهي مطالب تؤيد موقف الأنا من النزعات وتقويها على كبحها . ولكنها قد تبلغ من التطرف مبلغاً يجعلها هي بدورها من المشكلات التي تواجه الأنا ، فلوزادت مطالب الأنا العليا وتعددت وتطرفت ، لأصبحت عبئاً جديداً على الأنا وتكون النتيجة أن تضعف الأنا تحت ضغط الأنا العليا ، وتطمع هذه الأخيرة ، بل ويطمع المجتمع فيؤدي إلى ضغط جديد وإلى ضعف جديد وهكذا .

(فكأن الأنا يأتيها الضعف من نواح ثلاث :

- ( الأولى ) الحاح النزعات وطاقتها المكبوتة التي تبحث عن التنفيس والإشباع .
- ( الثانية ) المجتمع ومطالبه وما يرمى إليه من مقاومة بعض النزعات ولكل مجتمع ظروفه الخاصة ، وقد يكون المجتمع المحيط بالفرد قاسياً بدرجة تجعل من الصعب على الأنا أن يجيب مطالبه فيما يتعلق بالنزعات فتكثر المخالفات وتعدد .
- ( والثالثة ) الأنا العليا ، التي تقف بالمرصاد للنزعات ، وتوحى للذات بمعارضتها وتعاقبها وتؤنبها إذا قصرت ، أو إذا جارت النزعات ، ولو بجسارة جزئية . )

فإذا ضعفت الأنا أصبح الكيان النفسى كله مهددا بالانهيار لأنها الجانب الوحيد من العقل الذى يتصل بكل الجوانب الأخرى ، والذى يلقى عليه عبء التوفيق والتنسيق ، والذى يستطيع بماله من اتصال بعالم الواقع أن يجعل اشباع النزعات يتجه اتجاها واقعيا منتجا ، ويستطيع فى بعض الأحيان أن يصل إلى تعديل وجهة نظر المجتمع ، فيسمح بشيء من الرفق فى معالجة النزعات .

والأنا القوية هى التى تمسك الزمام فى يدها ، وتستطيع أن تصرف الأمور تصرفا حكيما ، وأن تتفادى الأزمات ، وأن توجه التيارات توجيها يحولها من الضرر إلى النفع .

فإذا قدرنا الأعباء الملقاة عليها حق قدرها ، استطعنا أن ندرك حاجتها إلى التقوية .

والواقع أن المهمة الأولى للعلاج النفسى هى تقوية الأنا وإعادة المقدرة والثقة إليها ، حتى تستطيع أن تواجه أعباءها مرة أخرى ويحتم التحليل النفسى الوصول إلى هذه النتيجة ، وينكر كل محاولة تقف عند تقصى الأسباب الخارجية للرض .

ولعل هذا يوضح لنا السر فى أن العلاج بالتحليل النفسى يتوقف على كشف مخبات اللاشعور ، لأننا إذ نكشفها إنما نكشفها للأنا الشعورية (١) فنصرفها بما كان خافيا عليها . وبذلك نسهل عليها الرقابة والتوجيه ونخلصها من الخوف والقلق اللذين ينجمان عن مواجهة المجهول .

فالصحة العقلية إذن مبنية على قوة الأنا أولا وقبل كل شيء ، وعلى ذلك يجب أن تُبنى تنشئة الطفل على هذا المبدأ .

والأنا كما علمنا تنشأ من النزعات نتيجة للمقاومة التى تجدها هذا من العالم الخارجى ، فهى تنشأ كوسيط بين العالم الخارجى وبين النزعات ، وعلى العالم الخارجى أى دلى الأبوين والمربين أن يبذلا جهدهما فى تقوية هذا الوسيط وتدعيم مسكته .

(١) أى للجانب الشعورى من الأنا .

### موقفنا من النزعات :

(وتقوية الأنا عملية تدريجية تنتج عن عاملين ، العامل الأول المقاومة التي تلاقىها النزعات . والعامل الثانى الاشباع الجزئى الذى تحصل عليه كما سبق أن بينا . وتتوقف متانة بنائها على السياسة التي تتبع بإزاء النزعات من مبدأ الأمر . وهنا نتساءل هل من مصلحة الصحة العقلية للفرد أن نجيب نزعاته ونشبعها؟ أو نكبتها ونقف دونها؟ الواقع أن الجواب حاضر فيما سبق أن ذكرناه وهو أن الكبت ضرورى لكي نعطي النزعات فرصة لأن تبحث عن طرق الإعلاء . ثم هو أمر لا بد واقع ولا سبيل إلى تفاديه على أى حال ، وإنما المهم أن نبذل ثمننا فى مقابل الكبت . فتكون معاملتنا للطفل من مبدأ حياته معاملة يمتزج فيها الرفق بالحزم .

هذا هو موقفنا من النزعات وهو الموقف الذى يؤدي إلى نشوء الذات نشأة سليمة وإلى تقويتها وتدعيمها .

### الأنا العليا :

فإذا بدأت نشأة الأنا العليا فإن نوع المعاملة التي يلقاها الطفل قد يؤدي إلى استبدالها استبدالاً شاداً يؤدي إلى عكس الصورة الأولى ، فينشو الطفل ونفسه تميل إلى حرمانه وشقائه ويعيش عبداً للتهكيت الضمير ، والشعور بالخطيئة . وعند ما يخطئ فإنه لا يواجه أخطائه ( أو أخطاء غيره ) مواجهة واقعية بل يواجهها مواجهة قاسية عمياء فى قسوتها نتيجة لنفوذ الأنا العليا .

ويصبح الشخص فى هذه الحالة ميالاً للمجرد إصلاح الأخطاء ، بل لنوع من العقاب الذاتى والتشفي ، الذى يستمر مدى الحياة .

ويصبح ميزان الخطأ والصواب عنده ميزاناً مختلاً ، يبالغ فى ناحية ويهون فى الأخرى . ومن الأسباب التي تؤدي إلى ذلك أن يكثر الأبوان من تأنيب الطفل وعقابه ، وأن يضحخا من أخطائه وأن يهونا من حسناته ، وإن يحرمهما من محبتهم وعطفهمما كلما ارتكب أهين من الأمور . وهنا نجد مرة أخرى أن المعاملة التي يمتزج فيها الرفق والحزم هى خير وقاية من هذا التطرف .

## إعلاء النزعات :

والصحة العقلية ترمى إلى إعلاء النزعات ، والإعلاء لا يتأتى إلا بالتدرج وبالرفق في معاملة الطفل . ولا بد لحديثه من اتساع مدى الخبرة العملية والاجتماعية للطفل ، حتى تتعدد أمامه فرص الإعلاء فتتجه نزعاته إليها . ومن أخطر ما يواجهه النفس في تطورها حدوث التثبيت بالنسبة لفترات معينة من حياة الطفولة ، والتثبيت يحدث كنتيجة لأحد عاملين أو كلاهما وهما :

( الأول ) أن تُشبع الرغبات في هذه الفترة اشباعا يجاوز المشطر ويزيد من إثارة الرغبة في هذه الفترة ، فيعمل الاستمتاع الفائق الذي حصل عليه الطفل في هذا الدور من حياته على تعلقه بهذه الفترة وميله للرجوع إليها فيما يلي من حياته ، وهذا هو سر الصعوبات التي يجدها الطفل المدلل في سائر حياته .

( الثاني ) أن تكبت النزعات كبتا شديدا ، ويعامل الطفل بالقهر والشدّة فتبقى هذه الفترة من حياته مقرونة بالحرمان الشديد الذي يجعله يحن إلى العودة إليها لكي يحصل على ما حرم منه .

وعلى ذلك فيجب أن يحصل الطفل في كل طور من أطوار حياته النفسية على شيء من الاشباع ويوجه نحوه شيء من الكبح ، ومن هذا المزيج تتأتى النتيجة المطلوبة ، وهنا أيضا نجد أن طريقنا الذهبي إلى حسن تنشئة الطفل هو مزيج من الرفق والحزم في معاملة .

## القطام النفسى :

ومعنى ذلك أن نتعلم احتمال نزعات الطفولة والنظر إليها باعتبارها مراحل تنتهى بانتهاء وظيفتها وعلى ذلك فعائنا أن نساعد الطفل نفسه على احتمالها ثم على التخلص منها عندما يحين الوقت لذلك . وموقفنا في ذلك كوقوفنا من جهة غذاء الطفل فنحن نسمح له بالرضاعة ما دام مهيتها لها ، فاذا آن الأوان أصبح من واجبنا أن نساعد على القطام . والقطام النفسى معناه الانتقال السليم من مرحلة إلى المرحلة التالية ، وهو يرتبط بنفس المتاعب التي يرتبط بها القطام الغذائى ، ويحتاج لنفس النوع من المعاملة الرفيعة الحازمة .

## الخبرة الاجتماعية :

وإذا علمنا التحليل النفسي شيئاً فهو أن تقدر صعوبة مركز الأنا بالنسبة للزعات أولاً ، ثم للأنا العليا ثانياً ، فإذا أدخلنا في حسابنا هذا التقدير استطعنا أن نهون على الطفل هذه الصعوبة ، وأن نأخذ بيده لكي يخرج من الأزمات المتعددة المتلاحقة بنجاح ، يكون هو أساس نجاحه فيما بعد .

والذات كما قلنا تنشأ كنتيجة للعلاقة التي تتكوّن بين الطفل والمحيطين به ، لكي تكون قوة داخلية تمثل وجهة نظر المجتمع في داخل النفس ، فهي تمثل نوعاً من الخلف ، بين متضادين هما الزعات والمجتمع ، وهي تحاول أن تعمل طبقاً لطلبات المجتمع ، ولا شك أنه مما يسهل عليها ذلك أن تكون متفهمة لهذا المجتمع ، وعارفة بما يتبعه من الفرص لإشباع بعض الرغبات ، لذلك فإن علينا أن نتيح للطفل فرصاً للخبرة الاجتماعية تجعله قادراً على فهم مطالب المجتمع بلا إفراط ولا تفريط ، مقدرراً للأهم فالمهم منها ، قادراً على أن يجد في مقابل التكاليف التي يفرضها عليه المجتمع ما يعوضه ويجعله قادراً على تحملها .

## دستور المعاملة :

والصحة العقلية مهمة بالنسبة للطفل وبالنسبة للراشد ، كما يصدق على معاملة الطفل ، يصدق على التلميذ وعلى العامل والمرعوس والمريض ، بل والسجين . كل أولئك أشخاص يتعرضون لما يتعرض له الطفل من ضعف الأنا أمام القوى اللاشعورية . والأنا في حاجة إلى التدعيم وهذا التدعيم يأتي من هم في مركز الإشراف والرئاسة والتوجيه فالمعلم ورئيس العمل ، والطبيب ، والمشرف على السجن ، وبعبارة أخرى فالمجتمع في مختلف أشخاص المشرفين منه ، كل أولئك يجب أن يكون دستورهم في معاملة من هم دونهم الرفق والحزم .

## العلم بالدوافع النفسية :

والمقصود بالرفق والحزم أن نعامل النفوس معاملة مبنية على المعرفة بنزعاتها الظاهرة والخفية . ولا شك أن العلم بمبادئ التحليل النفسي يجعلنا أكثر احتمالاً لأخطاء الغير ، وذلك في مصلحتنا ومصلحة هذا الغير . فأنت إذ تحتمل أخطاء الغير

إنما تترك أمامه السبيل مفتوحا لاصلاحها ، إذ ان الخطأ كثيرا ما يثبت نتيجة لمعالجته بالهجمات القاسية ، وبالغضب . ولهذا الحالة كثير من الأمثلة في حياتنا العامة والخاصة .

وكما أن العلم بالتجليل النفسى يجعلنا أقدر على احتمال الآخرين فإنه يجعلنا أقدر على احتمال أعباء الحياة على اختلاف أنواعها ، أى أنه يمهّد لصحة عقلية سليمة . وليس ذلك غريبا لأن أنواع المخاوف والقلق ، وأنواع الطواجس والأوهام ، إنما تأتي من جهل الانسان بالركن المظلم فى نفسه ، فإذا ألقى الضوء على هذا الركن ، كان فى مقدوره أن يحصل على الطمأنينة ، والشعور بالطمأنينة شرط لازم للسلامة العقلية .

ولا شك أن الصحة العقلية للجهاير تتوفر إذا زاد شعور الناس بالطمأنينة على اختلاف أنواعها .

### الجو العام المحيط بالطفل :

ولا شك أن العامل الأول فى السلامة العقلية هو الجو العام الذى يحيط بالطفل وهذا الجوليس ثابتا ، بل هو دائم الاتساع فهو يبدأ بالأسرة ، ثم يتسع فيشمل الأقارب والمعارف والأصدقاء ، ويزيد اتساعه فيشمل المتعاملين مع الأسرة على اختلاف أنواعهم من باعة أو مشترين أو ممثلين للحكم والنظام ، ثم ما يلبث أن يشمل المدرسة أو المصنع أو المزرعة أو غير ذلك من المجالات التى يتحرك فيها الطفل ، ويتسع مع اتساع مدارك الطفل وتشعب نشاطه ، فيشمل جزءا من العالم الذى لا يراه بعينه ولكنه يحس بأثره فيما يسمعه فى دروسه وفى قراءته ، ويتسع حتى يشمل المدينة ثم الدولة التى يتبعها ، وقد يشمل الجنس أو المجموعة اللغوية أو الدينية ، وقد يتسع الأفق فيشمل العالم بأجمعه بما فيه من أجناس وألوان ، وقد يتسع فيشمل ماضى البشرية بأجمعه .

والجو الأساسى للطفل هو جو المنزل بطبيعة الحال ، ولكنه لا يلبث أن يتخذ مركزا "للمراقبة" يستطيع منه أن يكتشف الجو الخارجى ، فإذا اطمأن إليه خرج يستكشف فإذا اطمأن إلى هذا اتسع مجاله ، وإلا فإنه يعود إلى "قواتمه" الأولى ولا يجرؤ على العودة للاستكشاف إلا بصعوبة كبيرة ولكى

ينشأ الطفل نشأة سليمة ، يجب أن يجد إشباع حاجاته النفسية واعيائها ، في هذه الميادين المختلفة. وذلك لأن المهمة الأساسية التي تلقى عليه هي القدرة على "التكيف" للمجتمع الذي يحيط به بمختلف حلقاته . والتكيف عملية عسيرة كما علمنا ، وكما سهل عليه المجتمع العائلي المحدود أن يحسن تكيفه في داخله ، كلما كان تكيفه للمجتمعات التالية أسهل وأيسر .

وقد تمر بالفرد أزمات عرضية ولكن الجو السليم يجعل احتمال هذه الأزمات أمرا ممكنا . خصوصا إذا كان القائمون على تربيته من الحكمة بالدرجة التي تجعلهم يستطيعون مساعدته على تحمل أزمات الطفولة الأولى ، كأزمات الفطام والتسنين وغياب المرضع والمربيات وأزمات المرض وغيرها مما يعتبر بالنسبة للطفل كأشد الأزمات وأكثرها هولا بالنسبة للراشد .

### الحلقة المفرغة في الصحة العقلية :

ومن أكبر العقبات في سبيل تنشئة جيل صحيح العقل ، أن الجيل الذي يشرف عليه هو نفسه محمل بنتائج الكبت والصراع الذي لاقاها في طفولته . فالوالدون وخصوصا الأمهات ، لا يعاملون أطفالهم معاملة مبنية على الحكم الصحيح على الأمور ، معاملة واقعية ترمي إلى الوصول إلى النتائج ، بل يجدون في غالب الأحيان أن زمام المعاملة يفلت من أيديهم ، فيشتدون مع أطفالهم في غير حاجة للشدة ، أو يلينون بحيث لا يجب اللين . يجدون أنهم ينتقمون إذ يعاقبون . ويغلب عليهم الغيظ من الأطفال ، والنعمة عليهم ، بدل اتساع الصدر والرفق . لا يحتملون من أطفالهم ما يحتملون من أطفال غيرهم وقد يخرجهم عن حدودهم مجرد لعب الطفل أو ضحكة أو قيامه بما لا يضر أو يفسد من ألوان النشاط . هؤلاء آباء وأمهات قد حملت حياتهم بنتائج الصراع ، فهم يحملونها بدورهم لأطفالهم ، إذا أتيت لهم هذه الفرصة الفريدة ، وأن الأم التي تعامل طفلها بهذه الكيفية إنما تعود عودة مؤقتة إلى طفولتها هي ، وتعامل الأطفال بقسوة العقل الطفلي وعنفه وقلة احتماله ، وبما يحمله من الغيظ والغيرة والرغبة في التدمير والتخريب ، وتكون النتيجة أن ينشأ الأطفال بدورهم وهم محملون بنتائج الصراع التي تظهر في معاملاتهم للناس ثم لأطفالهم إذا قدر لهم أن يكونوا آباء .

فإذا لم يكن للعالم بالتحليل النفسى إلا أن يلفت نظر الآباء إلى أن كثيرا من سلوكهم مع الأطفال لا يرجع إلى الروية والحكمة ، بقدر ما يرجع إلى ما لا يقوه هم في صغرهم من أنواع المعاملة الشاذة ، فإنه يكون قد أدى خدمة جليلة للصحة العقلية للأجيال الناشئة .

### أعداء أحيائهم :

وهناك كثيرون من الأشخاص تحسن علاقاتهم مع الغرباء ومع المعارف ، السطحيين ولكنك لا تكاد تدخل دائرة الاتصال الوثيق معهم حتى تجد حالهم قد انقلبت من الحسن إلى سوء ، فتجد الواحد منهم لا يقرب صديقا إلا وأبعده ، ولا يأنس لرفيق إلا ونال منه ، وتجد في بيته وبين أولاده شخصا قاسيا عنيفا فكان علاقاته كلما اشتدت وقويت ، كلما ظهرت فيها آثار الصراع ، وهذه حالة واضحة لأنها ترينا كيف أن عوامل الكبت تنصب على العلاقات العائلية وأشباهها . وأمثال هؤلاء يكونون رؤساء خطرين وأصدقاء خطرين وآباء خطرين . لأن القرب منهم يكون بمثابة اقتراب السفينة من دوامة قوية دوارة . وربما كان في أخبار الأقدمين عن الملوك ، ما يؤيد هذا الرأي فكثيرا ما نصح الحكماء بالابتعاد عن الدائرة الضيقة لهم ، أى الابتعاد عن صداقتهم وأحكام الصلة بهم . لأنه في هذه الدائرة يتجلى تنكيلهم وجبروتهم . وأمثال هؤلاء هم أشخاص لا يقوا في صغرهم من العنت من الأقربين إليهم ما جعلهم يربطون بين هذا العنت وبين توثق العلاقات ، فكما زادت علاقاتهم بالناس قوة وتوثيقا كلما شعروا أنهم هم غموم على معاملتهم معاملة شاذة قاسية .

### الخلاصة :

وأخيرا لعل في الحكمة القديمة التي نطق بها سقراط " اعرف نفسك " خير مبدأ من مبادئ الصحة العقلية ، فذلك الذي يعرف نفسه — وما أعسر معرفة النفس — هو الذي يستطيع أن يستمتع بحياة سعيدة سلسة منسجمة . قد يتعرض للنوائب والنوازل ، ولكنها لا تنال من سلامة النفس إلا بقدر ما تترك السحابة العابرة من أثر في صفاء الجو .

ولعل خير ما أفعله في ختام هذا الباب أن أنقل ما كتبه الدكتور هادفيلد المحاضر في علم النفس بجامعة لندن في ختام كتابه "علم النفس والأخلاق" فيما يلي (١) :

هناك مبادئ ثلاثة للصحة النفسية والحلقة وهى ، اعرف نفسك ، وتقبلها بالرضى ، وكن كما أنت (٢) .

### ”اعرف نفسك“

إن الغرض الذى يجب أن نرمى إليه من اختبارنا لأنفسنا هو أن نعرفها على حقيقتها ، ولعل ما نصح به الفيلسوف الأغرريق لم تتح له فرصة التحقق أكثر مما أتتحت له في الوقت الحاضر والفضل في ذلك للكشوف الحديثة في علم النفس . فمعظم الناس يظنون أنهم يعرفون أنفسهم ، وهم في الواقع إنما كانوا يعرفون أنفسهم كما يريدونها أن تكون ، لا كما هي في الحقيقة . فإذا أدركنا أن ما نريده لأنفسنا هو شيء لا نملكه ، فإنه لا يدهشنا أن نعلم أن ما نظنه في أنفسنا هو عكس الحقيقة ، أو عكس ما يراه الناس فينا .

وليس في حياة أى شخص لحظة أجل ولا أعظم من اللحظة التى يتكشف فيها على حقيقة نفسه ، وقد يأتى ذلك أحيانا كنتيجة لمقارنة الإنسان نفسه بمثل أعلى كما يحدث في الدين . ويأتى كنتيجة للتحليل . وغرض التحليل النفسى ، هو أنه يكشف عن الشخص كله ، يكشف عنه لنفسه . وإن ما يظهر للشخص عن نفسه ليدهشه هو قبل كل إنسان ، بل إنه قد يصدمه صدمًا لغرابته وقلة توقعه .

### ”تقبل نفسك“

من أصعب الأمور في الحياة ، أن نتقبل أنفسنا ونرضى بها ، بعد أن عرفناها ، وهناك فرق كبير جدا بين مجرد احتمال الانسان لنفسه وبين تقبلها بالرضى . فعند ما نحتمل شيئا ما فحسب هذا أننا لانتقبله . فنحن نحتمل من أنفسنا نزوات ، ونحتمل من أنفسنا الغرور أو الطمع أو ورود الأفكار الشريرة عليها ، ولكننا إذ نفعل ذلك ، إذ نعتبر أننا ”نحتمل“ ذلك من أنفسنا ، إنما نعترف بأننا لانتقبله . والواجب أن نتقبل أنفسنا كما هي ، نتقبلها مغرورة ، معتدية شهوانية ، وبهذه

(١) Hadfield : Psychology and Morals

(٢) في الأصل Know Thyself, Accept Thyself, Be Thyself.

الوسيلة نستطيع أن نكتسب نزعاتها الغريزية الى جانبنا ونوجهها الوجهة الصالحة ،  
وخير طريقة لترويض الوحش أن نجعل منه صديقا . فالرجل الذي يشعر بأن  
سلوكه يصطبغ بالطراوة والرفق حتى ليكاد يعتبر ” مؤثما “ لا يفيدته تجاهل هذه  
الصفة فيه ، بل يفيدته الاعتراف بها ، وتوجيهها الوجهة التي تجعلها ثمرة ،  
والرجل المغرور لا يفيدته أن يكظم غروره ، ويحوّله الى شعور بالمذلة والضعفة ،  
وإنما يفيدته أن يعترف بما تتصف به نفسه وأن يوجهه الوجهة الصالحة  
المنتجة ، والرجل الذي يشعر في نفسه بالترعة الشهوانية تملأ أفكاره ، يجب أن  
يعترف بها ويتقبلها ، ويحاول أن يكتشف السبل التي يوجه فيها ما كمن في نفسه  
من طاقة .

وربما يظن البعض أننا إذا تقبلنا أنفسنا كما هي ، فأنما ندمر كل أساس  
للخلق ، والواقع أن هذا فهم خاطئ لأن التقدم الخلق لا يمكن تحقيقه إلا على  
أساس مواجهة الواقع .

والصعوبة التي نجدها في الاعتراف بأنفسنا وتقبلها كما هي في الواقع ، هو أن  
ذلك إنما يفهم الصورة الوهمية المضخمة التي ترسمها لأنفسنا عن أنفسنا . والتحليل  
يزيح أمثال هذه الصور الوهمية ، وكثيرا ما يكشف لنا أننا أشخاص عاديون  
بدرجة غير عادية ، فاذا تقبلنا ذلك فإنه لا يكون فيه راحة وطمأنينة لأنفسنا  
فقط ، وإنما يكون دافعا عظيما للتقدم الخلق .

”كن كما أنت“

من الطبيعي أن نهتم بما يظنه الناس فينا ، ولكن غير الطبيعي هو أن يصل  
بنا ذلك الاهتمام الى تحقيق الصورة التي يفرضها علينا الغير ، لأن ذلك نعناه  
أننا نقوم بدور تمثيلي ، وأننا نحاول الخروج عن أنفسنا وأننا نفقد شخصيتنا .

ولكل منا أكثر من شخصية ، ومن أهم هذه الشخصيات ، الشخصية التي  
نظهرها للناس ، أي شخصيتنا كما تظهر للآخرين .

وهذه الشخصية ”المظهرية“ هي القناع الذي نصطفيه والذي نريد من الآخرين  
أن يروه ، وكثيرا ما تكون هذه الشخصية بعيدة عن شخصيتنا الحقيقية بل ومناقضة  
لحقيقتنا النفسية ، وبينما تعبر الأولى عن سلوكنا الخارجي تعبر الثانية

عن أنفسنا الحقيقية . وكثيرا ما نجد أنفسنا تفعل ما لا نستريح اليه لمجرد أننا نظن أنه يناسب الآخرين .

وهذه الرغبة في أن نصطنع ما ليس فينا ، ونتعمد ، تجعلنا نحاول أن نلبس أنفسنا لبوس الغير ، ولا نلبث أن نخال أننا قد أصبحنا وهم سواء .

والأمثلة على ذلك كثيرة منها ما يأتي من حياة المشاهير ومنها ما تجده في حياة العاديين من الناس .

فنا بليون كان يفخر بأنه موسيقى أكثر مما يفخر بأنه محارب ، والقيصر ولهم كان يظن نفسه مثالا ، وهكذا نجد الحلاق فنانا ، والاسكافي جراحا ، والطار مدير متجر ، وغير ذلك مما يستطيع أن يدركه كل من حادث أمثال هؤلاء الناس أو قرأ اللافعات التي يكتبونها على محالهم .

وهذه التخييلات لا تكون ضارة مادما ندرک أنها تخيلات ، ولكنها تصبح ضارة إذا اندمج الشخص في تمثيل دوره اندماجا جعله ينسى شخصيته الأصلية ويفنى في الشخصية الخيالية التي خلقها .

وقد قيل على سبيل السخرية إن اللغة قد اخترعت لتغطي على الفكر ، وربما صح ذلك أيضا عن السلوك فكثيرا ما يكون سلوك الانسان لا معبرا عن شخصيته ، وإنما وسيلة لإخفاء هذه الشخصية . فالإنسان يساوكه كأنما يلبس قناعا يخفي حقيقة شخصيته ، ولعل من الطريف أن نجد هذا المعنى متحققا فيما يسمى بالملابس الرسمية التي ترضى على لابسها أهمية كثيرا ما تكون بعيدة كل البعد عن حقيقة نفسه .

كما أن الواعظ يصطنع صوتا يكسبه قوة التأثير والقاضي يظهر بوقار يجعل له في القلوب هبة ورهبة ، بينما يظهر البائع بمظهر اللباقة والاستعداد للخدمة .... كل هذه إنما يقصد بها أن تغطي نواحي الضعف في النفس وتحل محلها قوة ظاهرية .

ولكن الواقع أنه مجرد أن يفقد الإنسان شخصيته الأصلية ، ويصطنع الشخصية الخارجية ، فإنه يفقد قوته الداخلية الحقيقية ، فيصبح أضعف مما هو ، لأنه يريد أن يظهر أقوى مما هو .

ولا داعي للقول أنه من النبيل أن يظهر الإنسان كما هو ، ومن الضعفة أن يظهر بما ليس فيه .

ولكن ظهور الإنسان كما هو ليس بالأمر السهل .

وخير للإنسان ألف مرة أن يترك الدموع تسيل على خديه في موقف مؤثر ، من أن يدعى أنه ينظف أنفه ، وخير له أن يعترف بأنه خرج لكي يستمتع بالزحام في يوم مهرجان ، بدلا من أن يقول ”خرجت لأشاهد الناس وأدرسهم“ وخير للكاس أن يكون ككاسا من أن يكون موظفا بمصاحبة التنظيم ، وللمدرس أن يكون مدرسا من أن يكون أستاذا .

ومن الغريب أن العالم يحترم أولئك الذين يكونون أمناء وصرحاء ولكنه لا يظهر الرغبة في أن يتبعهم ، ومع ذلك ليس هناك راحة ولا سلام أكثر من أن يشعر الإنسان أنه يظهر على طبيعته ولا يتكلف .

وليس أبدع في إبراز هذا المعنى مما ذكره ”جيمس“<sup>(١)</sup> من أن سيدة قالت له إن أسعد يوم في حياتها كان اليوم الذي انقطعت فيه عن محاولة الظهور بأجمل مما هي في الواقع . وليس ذلك غريبا لأن الجري وراء المستحيل عبء ثقيل ، ينهار الكثيرون قبل أن يستطيعوا بلوغه .

وإننا إذ نرفض أن نظهر على حقيقتنا ونحاول أن نظهر بغيرها إنما نفشل في الغائتين . ونفقد شخصيتنا بدون أن نكسب شيئا آخر . إن اكتشاف حقيقة أنفسنا ، والاعتراف بالدوافع التي تدفعنا يجعل في إمكاننا أن نبني خلقنا بناء سليما يكسبنا ذاتية حقيقية ، لأننا نبينا بأنفسنا من المواد التي وضعت تحت تصرفنا وبهذه الطريقة نستطيع أن ”نتقدم“ على أساس ثابت فنصل بأنفسنا إلى أقصى ما هو مهيا لها .

”اعرف نفسك ، تقبل نفسك بالرضا ، وكن كما أنت“

ولعل أضيف إلى ما قاله الدكتور هادفيلد قاعدة لا تقل عن السالفة أهمية للصحتين العقلية والشخصية والعامة ، وهي : اعرف غيرك ، تقبل غيرك بالرضا ، واترك الناس يظهرين كما هم .

(١) Will'am James الفيلسوف والعالم النفساني الأمريكي

مراجع الكتاب

- FREUD :— Introductory Lectures on Psycho-Analysis.  
— New Introductory Lectures on Psycho-Analysis.  
— The Ego and the Id.  
— Psycho-Pathology of Everyday Life.  
— Moses and Monotheism.  
— Collected Papers.
- FLUGEL :— Psycho-Analysis.  
— In Essay form in " An Outline of Modern Knowledge, Gollancz ".  
— The Psycho-Analytic Study of the Family.  
— Psychology of Clothes.  
— A Hundred Years of Psychology.
- ERNST JONES :— Psycho-Analysis, Benn's Sixpence Library.
- ANNA FREUD :— Psycho-Analysis for Teachers.
- HADFIELD :— Psychology and Morals.
- LORAND, Sandor, " Editor " :— Psycho-Analysis Today.
- JUNG :— Psychological Types.
- ADLER :— Understanding Human Nature.  
— The Science of Living.
- WOODWORTH :— Contemporary Schools of Psychology.
- Mc DOUGALL :— An Introduction to Social Psychology.  
— Energies of Men.  
— An Outline of Abnormal Psychology.  
— Psycho-Analysis and Social Psychology.
- MAC CURDY :— The Psychology of Emotions.
- MELANIE KLEIN :— Psycho-Analysis of Children.